الكتابة التاريخية في العصر الوسيط
"ابن أبي زرع الفاسي أنموذجا"

أ . صديقي نصيرة
snassera8@gmail.com
جامعة غرداية

الملخص

إن التأليف في كتابة تاريخ أمة أو فترة خاصة، لا يعني إلا شيئا واحدا هو إظهار تطور الفكرة التاريخية لدى مؤرخي تلك الفترة أو الأمة، وتطور معالجتهم العلمية وكذلك وصف أصول صور التعبير الأدبي ونموها وانحطاطها، تلك الصور التي استعملت لعرض المادة التاريخية، ولذلك يمكننا القول بأن تطور مناهج الكتابة التاريخية عند المسلمين، جاء متزامنا مع تطور المجتمعات الإسلامية، بحيث فرض التحول الاجتماعي عبر الأزمنة، تغيرا في طريقة الكتابة التاريخية.

Résumé

La paternité dans l'écriture de l' histoire, d'une nation ou d'une période donnée, ne signifie qu'une chose : l'évolution de l'idée historique de cette période, ou de cette nation, et l'évolution du traitement scientifique, ainsi que la description des origines des images d'expression littéraire, de leur croissance et de leur déclin, ces images ont été utilisée pour afficher le contenu historique, on peut donc dire que le développement des programmes d'écriture historique pour les musulmans, coïncide avec le développement des société islamique, de sorte que l'imposition de la transformation sociale a travers les temps, donne ce changement dans la façon de l'écriture historique.

المقدمة

إن أسبقية المشارقة عن المغاربة في تدوين التاريخ الإسلامي، لم يكن بسبب نقص إمكانية المغاربة في الكتابة، ولكن مردّ ذلك إلى بدء الحضارة الإسلامية وبروزها في المشرق الإسلامي قبل المغرب وع تطور الكتابة التاريخية عند المشارقة تطورت أيضا في المغرب الإسلامي عبر كافة مراحله.

وقد ركز الكثير من المؤرخين في الفترة الأخيرة من العصر الوسيط ضمن مؤلفاتهم على تتبع منهجية معينة في تدوينهم للتاريخ، فالكتابة عن المغرب الإسلامي كانت في بداياتها الأولى مع المشارقة مثل: كتاب النسب الكبير و الجمهرة في الأنساب لابن الكلبي، وفتوح افريقية للواقدي وغيرهم وسيرا على هذه المؤلفات بدأ التدوين في المغرب الإسلامي.

ويعد العصر الموحدي عصر الكتابة التاريخية بامتياز في المغرب الإسلامي، وبمجيء المرينيين الذين واصلو ما كان عليه أسلافهم في الاهتمام بالتأليف وحركة التدوين وتشجيعهم لها، وبرز العديد من المؤلفين والمؤرخين وبخاصة في نهاية العصر الموحدي وبداية العصر المريني من بينهم ابن خلدون وابن عذارى المراكشي، وعبد الواحد المراكشي، وابن أبي زرع الفاسي، هذا الأخير الذي ألّف كتابه **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار وتاريخ مدينة فآس** والتي تحتاج إلى جانب من الدراسة والبحث سيم الكشف عن حركة التدوين في العهد الذي عايشه ابن أبي زرع وعن منهجيته في الكتابة وطريقة طرحه للمادة التاريخية استعراضه لأهم المصادر التي تعرض لها في مؤلفه وبذلك جاءت دراستنا معنونة ب:"**الكتابة التاريخية في العصر الوسيط –ابن أبي زرع الفاسي أنموذجا–**

وكان اختيارنا لهذا الموضوع عن اهتمام ورغبة منا بالإحاطة والإلمام بشخصية هذا المؤرخ والتعرف على هويته التي ينتابها الغموض والكشف عن المنهج التاريخي السائد والمتبع في تلك الفترة الزمنية

وللإلمام بالموضوع قررنا طرح الإشكالية الآتية مكانة ابن أبي زرع بين مؤرخي العصر الوسيط وأنضوت تحت هذه الإشكالية تساؤلات فرعية، وهي:

-من هو المؤرخ ابن أبي زرع الفاسي؟

-كيف كانت سيرته العلمية؟

-ماهي أهمية الأنيس المطرب بروض القرطاس؟

وقد اعتمدنا في انجاز هذه الدراسة المنهج الوصفي السردي بالإضافة إلى المنهج التحليلي حيث فسرنا ما يحتاج التفسير وللإجابة على هذه التساؤلات جاءت خطة بحثنا كالآتي:

مقدمة وفصلين وخاتمة، تطرقنا في الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان المؤرخ ابن أبي زرع وسيرته العلمية والذي اندرج تحته ثلاثة مباحث الأول بعنوان ابن أبي زرع المولد والتسمية تعرضنا فيه إلى سيرته الذاتية واختلاف المؤرخين وأصحاب التراجم حوله والمبحث الثاني بعنوان عصر ابن أبي زرع وأشتمل على الوضع السياسي لدولة بني مرين في عصر مؤرخنا، وأهم السلاطين الذين عاصرهم ودراسة الوضع السياسي العام في الدول الإسلامية المجاورة وعلاقاتهم بهم كدولة بني الأحمر بغرناطة والزانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بالمغرب الأدنى أما المبحث الثالث فعالج سيرته العلمية.

أما الفصل الثاني فجاء تحت عنوان أهمية كتاب الأنيس والمنهجية المتبعة في تأليفه واحتوى هو الآخر على ثلاث مباحث الأول قدمنا فيه كتاب الأنيس المطرب، والمبحث الثاني ذكرنا فيه محتويات الكتاب أما المبحث الثالث فعالجنا فيه منهجية ابن أبي زرع في كتابته للأنيس المطرب.

وتم الاعتماد في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع المكملة والتي توافقت أهميتها واحتوائها على المعلومات التي لها صلة بالموضوع ومن أهمها كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لابن خلدون عبد الرحمن وكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي، ومن المراجع التي اعتمدنا عليها كتاب ذكريات مشاهير المغرب في العلم والأدب والسياسة لعبد الله كنون.

المؤرخ ابن أبي زرع وسيرته العلمية

ترجمته الذاتية

المولد:

لا يجمع الكثير من المؤرخين، على تحديد سنة معينة لمولد ابن أبي زرع وذلك للغموض والإبهام الذي يدور حول هذه الشخصية، فحتى أصحاب كتب التراجم لم يحددوا سنة لمولده ولذلك فمعظمهم يتفقون، على أن تاريخ وفاته يمكن استنتاجه من خلال كتابه الأنيس المطرب فيرجحون على أن مولده، كان مابين أواخر العصر الموحدي وبداية العصر المريني والأكثر احتمالا هو نهاية الدولة الموحدية، وبذلك يمكن تحديد تاريخ مولد ابن أبي زرع ما بين سنتي(660هـ-1260م) و(ت741هـ-1341م).[1] بوقعة طريف.[2]

الخلاف حول اسمه:

فيما يتعلق بترجمة ابن أبي زرع، فان الغموض الواقع في اسمه ورد في عدة أسماء وألقاب ولذلك سنحاول أن نجلي، بعض الغموض الذي يدور حول هذه الشخصية واسمه بالنظر لما انتهى ألينا من أقوال عن حياته وتاريخه، يذكر صاحب "**جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**"على أن اسم ابن أبي زرع هو: أبو الحسن على ابن عبد الله(أحمد ابن أبي زرع) القارئ المتقن.[3] وسماه صاحب بيوتات فاس، بأحمد بن أبي زرع تولى الإمامة والخطبة بجامع القرويين بطلب العوام منه.[4]

فمنهم من ذكر أن كتاب الأنيس المطرب، هو لصالح بن عبد الحليم، ومنهم من ذهب إلى وجود كتابين بعنوان الأنيس، أحدهما يدعى الأنيس الصغير لصالح ابن عبد الحليم والكبير لابن أبي زرع.

ومن المؤرخين الذين تطرقوا إلى صحة اسمه ونسبته إلى كتابه الأنيس المطرب، عبد الله كنون حين ذكر أنه يوجد الأنيس الصغير لصالح ابن عبد الحليم، والأنيس الكبير وهو ينسبه للشيخ الإمام الواعظ الخطيب المفتي الولي الصالح الورع الزاهد أبي الحسن، أو أبي عبد الله أو أبي العباس أحمد بن أبي زرع وهما كثيرا ما يتفقان فيها في الأخبار والمسائل.[5]

ثم إننا لا نكاد نذكر الأنيس أو القرطاس، إلا ونجد أن اسمه مقرون باسم ابن أبي زرع الفاسي فقد ذكره ابن خلدون في العبر، باسم الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن عمر، وقد ذكره أيضا لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة باسمه وكتابه"روض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي"، وذكره أيضا الجزنائي في **جنى زهرة الآس**.

وإضافة إلى هذا، أجمع أهل العلم المعاصرين شرقيين و مستشرقين وعموم المثقفين على هذه النسبة فما يذكر أحدهم كتاب القرطاس، إلا مقرونا باسم ابن أبي زرع.[6] وجاء ذكره أيضا في "**دليل المؤرخ في المغرب الأقصى**"باسم الحسن علي ابن أبي زرع.[7]

أسرته:

أما الحديث عن أسرته فقد ذكر أنها كانت بفاس، في أواخر العصر الموحدي وأوائل العصر المريني ويظهر أن هذه الأسرة كانت من أهل العلم والفضل، وان لم يبلغنا عنها خبر غير ما ذكر، وقد ذكر من هذه الأسرة رجال عرفوا بالصلاح والزهد والفضل أمثال أبي العباس أحمد الذي قدمه الفقهاء و الأشياخ للإمامة بجامع القرويين، بعد وفاة الإمام علي بن محمد وأبي عبد الله محمد أول خطباء الجامع الكبير بفاس الجديد، وهو المتوفى في وقعة طريف سنة 741هـ، وعلي بن عبد الله مؤلف القرطاس.[8]

مما يلاحظ سابقا فقد اختلف في اسم ابن أبي زرع الفاسي، ووقع أيضا غموض واشتباه في حاله فمن واصف له بالعلم والصلاح والفقه والإفتاء وما إلى ذلك، ومن محجم ومقتصر لا يزيد عن وصفه بالثقة والعدالة شيئا.[9] ولعل الاسم الكامل لمؤلف القرطاس بعد تضارب الآراء هو: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، وابن أبي زرع هو النسب الذي عرفت به أسرته.

مذهبه:

أما بالنسبة للمذهب الذي كان عليه ابن أبي زرع الفاسي، فلم يصرح به علنا في كتابه ولكن من الواضح على أن المذهب المالكي هو المذهب الذي كان عليه، بدليل عدم تعرضه لسلاطين الدولة المرينية بشيء وهم الحاملون للواء المذهب، بل ذهب إلى أكثر من ذلك فمدحهم وأثنى عليهم.

عصر ابن أبي زرع الفاسي:

عاش ابن أبي زرع الفاسي في كنف الدولة المرينية.[10] (869/668هـ-1465/1269م)، التي حكمت المغرب بعد زوال الموحدين (668هـ/1268م).[11] وقد شجعت هذه الدولة العلم والعلماء وسلكت طريق العلم منذ نشأتها، فكان العلم عاملا مهما في حياة هذه الدولة وهو ما اشتهرت به في كل حوادث عصرها، واستفادت من أغلب مجهودات ملوكها، حتى قيل "إنهم لم يوفقوا في السياسة كما تفوقوا في نشر العلم".[12]

وان الحديث عن العصر الذي عاش فيه ابن أبي زرع، يفرض علينا الخوض في كافة المجالات التي كانت تحيط بحياته، خاصة في أواخر الدولة الموحدية (868/524هـ-1269/1130م).[13] وأوائل الدولة المرينية التي ورثت عن الموحدين حكم بلاد المغرب وحاولت جاهدة أن تسير على نهجهم، في توحيد أقطار المغرب الإسلامي، وقد تأثرت هذه الدولة بما كان يجري حولها من أحداث سياسية، وأخرى علمية وثقافية سواء على النطاق الداخلي والمحلي خاصة، من حيث التركيبة الاجتماعية وأثرها في تكوين الفرد المغربي وكذلك الوضع الثقافي والسياسي، على المستويين الداخلي والخارجي ومدى تأثير الدولة به وتأثرها.

فبعد سقوط دولة الموحدين ظهرت، على أنقاضها ثلاث دويلات بالمغرب الإسلامي: الحفصية، الزيانية، المرينية، دخلت كلها في صراع سياسي مستمر وتنافس حول بسط النفوذ و فرض سلطانها على كافة أرجاء المغرب الإسلامي، وسعيا منها إلى توحيده تحت لوائها باعتبار أحقية كل واحدة منها في وراثة الموحدين.

في عهد مؤلفنا كان الصراع على أشده بين الزيانيين والمرينين، خاصة لجوارها في الموطن والملك ومنافستهما على الاستقلال برئاسة زناتة، ولتحقيق ذلك راحت كل واحدة منهما تبذل جهودها في مختلف المجالات مستغلة كل الطرق والوسائل فكان بذلك تاريخهما السياسي حافل بالمعاهدات ونقضها، والمؤامرات والخيانات والصراعات الداخلية في الأسرة المالكة حول العرش والحصارات وغيرها.

فالوضع السياسي الذي عاشه مؤرخنا، والذي كتب عنه الكثير في كتابه الأنيس المطرب خاصة ما كان بين عبد الوادي والمرينيين، فان الخلاف بينهما قديم ناشئ عن التنافس الشديد بينهما حول بسط نفوذهما على أكبر مساحة من المغرب، باعتبار أسبقية كل واحدة منهما في وراثة الموحدين، إضافة إلى الجوار في الملك والمنافسة والاستقلال برئاسة زناتة.[14]

وبوفاة أبي يحيى بن أبي بكر بن عبد الحق المريني بدأ العصر السياسي الذي عايشه ابن أبي زرع وقد استمرت الصراعات السياسية، ومع التفوق المريني عدة وعددا كانت الغلبة لصالح بني مرين، فألحقت ببني زيان هزيمة ثقيلة قتل فيها الأمير أبو حفص عمر كبير أبناء يغمراسن.[15] وولي عهده فكانت هذه الضربة قاسية على عبد الواد، مزقت صفوفهم وهزت من معنوياتهم مدة طويلة خصوصا، بعد فرار يغمراسن إلى تلمسان وهو منهار المعنويات.[16]

وقد ذكر ذلك ابن أبي زرع في الأنيس حيث أورد:"فشن يغمراسن الغارات في أطراف بلاد أمير المسلمين يعقوب فاتصل به الخبر وهو محاصر لمراكش فأقلع عنها وقصد تلمسان لحرب يغمراسن بن زيان ورأى أن تقديم غزوه من الواجب".[17]

وبعد هذا الصراع المرير، رأى يعقوب بن عبد الحق أن ينتهز الفرصة ليصالح يغمراسن ليأمن جانبه، لكنه لم يفلح في ذلك وبعد توالي الهزائم على يغمراسن عمد إلى تغيير سياسته تجاه المرينيين، حيث كف عن مناوئتهم لبعض الوقت واتجه شرقا للتوسع على حساب الحفصيين، وفي سنة 673هـ انعقدت المهادنة بين يغمراسن وابي يوسف يعقوب

بمبادرة من هذا الأخير، التزم بمقتضاها يغمراسن بعدم الاعتداء على الأراضي المرينية.[18] واستمرت العلاقات السياسية بين الدولتين، في تأرجح ولكن غلب عليها طابع التوتر الدائم حتى بعد تاريخ ابن أبي زرع الفاسي.

وفيما يتعلق بالعلاقات، السياسية بين الحفصيين والمرينيين في المجال السياسي والتي تخص عصر مؤرخنا ابن أبي زرع الفاسي، فقد كانت الأمور على نحو ما جرت عليه بين المغرب الأقصى والأوسط، وتبدأ العلاقات الحقيقية بينهما بعد ارتقاء أبي حفص سدة الحكم على العرش الحفصي، فبدأت بالتصالح وعدم الدخول في صراعات حقيقية وقد كانت علاقات جيدة سادها الود والمصاهرة حيث تزوج السلطان المريني، مع إحدى بنات أبي بكر الحفصي وخلال معركة طريف[19] سنة 741هـ/1341م، أرسل السلطان أبو الحسن في طلب أساطيل المسلمين، فجاءته أساطيل الحفصيين من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونه وبجاية، إلا أن هذا الود بين الطرفين سينتهي، وتتوتر العلاقات السياسية بين بني حفص وبني مرين وتلك الأحداث لم يعايشها مؤرخنا، لأنها كانت بعد العصر الذي عاش فيه والذي اتسم بالهدوء والود.

وقد تأثر ابن أبي زرع، بالواقع السياسي الموجود في تلك الفترة بين الدولة المرينية وباقي الدويلات الإسلامية الأخرى، واتضح ذلك في كتابه الأنيس المطرب حيث لم يدع أي حدث مهم خاصة إذا تعلق بالدولة المرينية إلا وذكره، في حين لم يكتب عن الدول الأخرى المجاورة إلا إذا تعلق الأمر بالمرينيين

الوضع الاجتماعي:

استقرت عناصر سكان المغرب، على ما كانت عليه من أصول في عهد الموحدين وبدأ أثر العنصر العربي يشتد في توجيه الحياة السياسية شيئا فشيئا، ولكن لم يكن العامل الوحيد والأساسي في ضعف الدولة أو سقوطها، فقد اعتمد بنو مرين على عدة عناصر منها البربر والأندلسيون والعرب، الذين كان معظمهم من الفرسان والغز الذين ينتمون إلى قبائل تركية كانت تسكن في إقليم ما وراء النهر وكان ظهورهم منذ عهد المرابطين.[20]

أما الفرنجة فمعظمهم كانوا يمثلون فرقة ضمن فرق الجيش المريني وكان قائدهم يطلق عليه اسم قائد جند النصارى[21] وقد حرص سلاطين بني مرين على جمعهم في مكان واحد عرف بحي الملاح بالقرب من البلد الجديد،[22] كما شكل اليهود أعدادا كبيرة في المغرب الأقصى فكان أكثرهم بفاس.[23]

الوضع الثقافي:

أما عن الجانب الثقافي في عصر مؤرخنا، والذي كان في فترة حكم السلطان أبو الحسن المريني وما قبله، فلم يقّل اهتمام المرينيين بالعلم والعلماء عن غيرهم فقد أولو هذا الجانب عناية فائقة فاهتم سلاطينهم، بتقريب العلماء منهم في مجالسهم وإجراء الأرزاق عليهم ومنحهم مناصب هامة في الدولة واستشارتهم في أمورها، وحضور حلقات دروسهم.

وما يمكن جمعه عن الحياة الثقافية، من المؤرخين المعاصرين له لأن ابن أبي زرع لم يذكر في كتابه الأنيس المطرب الأحوال الثقافية إلا نادرا، واكتفى بالجانب السياسي وأسهب فيه حيث يقول ابن خلدون: "كان السلطان أبوا الحسن لدينه وسرواته وبعد شأوته في الفضل يتشوق إلى تنويه مجلسه بالعلماء واختار منهم جماعته لمصاحبته ومجالسته."[24]

ومهما يكن فان العصر الذي عاشه ابن أبي زرع، شهد ازدهارا علميا وحركة فكرية نشيطة حيث ظهر جيل من العلماء والفقهاء والمؤرخين، أسهموا بشكل كبير في إثراء الحياة العلمية نذكر منهم مصباح بن عبد الله الياصلوتي[25]، وعبد الرحمن بن عفاف الجزولي أبو زيد وأبو عبد الله محمد الرندي الفاسي[26]، وأحمد بن محمد بن حزب الله الخزرجي العبادي السعدي توفي 741هـ/1341م من بيت علم بفاس أصلهم من الأندلس، كان فقيها.

أما عن العلماء الذين عاصروا ابن أبي زرع، فكان منهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني توفي 757هـ/1356م، شيخ العلوم العقلية والنقلية في عصره أشهر علماء المغرب الأوسط وأبو عبد الله محمد بن يحي بن علي النجار التلمساني، أصله من مراكش وابن عذارى المراكشي صاحب كتاب"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب".

سيرته العلمية:

تعليمه وآثاره :

من أهم الآثار التي خلفها ابن أبي زرع الفاسي، كتاب " **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"**، الذي يتناول تاريخ أربع دول تعاقبت على المغرب الأقصى (الادريسية، المرابطية، الموحدية، والمرينية)، ولا يمكن لأي دارس أو باحث في تاريخ المغرب أن يستغني عن هذا الكتاب، كما أن له كتاب مفقود تحت عنوان"**زهرة البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع الوجود"**،وبالنسبة لشيوخه الذين تلقى عنهم وكذلك تلاميذه فلا تذكر المصادر عن ذلك شيئا بما فيها كتبه سالفة الذكر.

صفاته العلمية:

تباينت مواصفات المؤلفين و المؤرخين حول شخصية ابن أبي زرع الفاسي، ولا نستطيع ترجيح قول مؤلف عن الآخر، وذلك بسبب ضياع ترجمته، وقد ذكره الحلبي في الدر النفيس[27] على أنه من عدول فاس، وأضاف أيضا:" ونهم الباهر ذو السر الباهر عمدة أهل المغرب في التاريخ الشهير بكتاب الأنيس والقرطاس، وهو أبو عبد الله بن أبي زرع هكذا وجدته.

ويقال: أبو الحسن، ذكره الإمام الولي الصالح العرف بالله تعالى سيدي أحمد زروق، وتعجب من صنيعه، في شرحه أرجوزة أبي العباس ابن البناء وأثنى عليهما[28]، وقد عده ابن خلدون فيمن يعتمد عليهم في ذكر الأخبار في كتابه، وقد نعته أيضا وذكره ابن الخطيب التلمساني في أول كتابه الإحاطة، مع من ذكره أنه كان عدلا ثقة في سماط العدول من فاس عند الجامع القروي وهو ذو علم وبراعة ولفظه يدل على ذلك وصنيعه في كتابه[29].

وعلى العموم فان شهرة الكتاب، على أنه جاء ملما بتاريخ المغرب الأقصى وبالأخص مدينة فاس، والدليل على ذلك اعتماد الكثير من المؤرخين الذين جاؤوا بعده في كتاباتهم على ما ذكره في كتابه عن أنباء وحوادث عصره.

كما يضيف عبد الله كنون، في كتابه على أنه على قدر من علم الفقه وصناعة التوثيق والحساب مما يقتضي انتصابه لوظيفة العدالة، وقد عهدنا في العدول ولاسيما البارزين منهم الاعتناء بفن الإنشاء وتحسين الخط ومن ثمّ فأنهم يتوفرون على مادة أدبية ولغوية لا بأس بها[30]، والى هذا نعود إلى ما نجده عند صاحبنا من عبارات منتقاة وجمل بليغة وحسبك منه هذه الخطبة البارعة التي جعلها لكتابه القرطاس.

ومن أبرز صفاته، الإيمان العميق ومحبته أهل البيت وتعظيم العلماء ومشايخ الدين[31] كذكره للإمام إدريس الحسني رضي الله عنه" هو الإمام القائم بالمغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه"[32]، ونجده يكرر هذا الكلام عن إدريس في كثير من مواضع كتابه والترضي عنه[33]، وهو دليل على حبه الشديد لآل البيت، ومن صفاته أيضا الاعتدال وعدم التطرف، فهو قد تكلم أصلا وعرضا على زهاء عشر دول ومع ذلك لم ينل من واحدة منهن منالا، ولم يظهر تحيزه السافر لواحدة منهن إلا ما كان من عطفه على الأدارسة كما قلنا، وعيبه على موسى بن أبي العافية تنكيله بالأشراف[34]وذكر ذلك ابن أبي زرع في الأنيس المطرب " فنزل عليهم ابن أبي العافية واشتد عليهم الحصار، وأراد استئصالهم وقطع دابرهم"[35]

هذا وبالرغم من الشهرة الواسعة، التي حضي بها ابن أبي زرع الفاسي من خلال كتابه وعدم الاستغناء عنه بخاصة لدارسي تاريخ المغرب الأقصى، واقتران اسمه بتأليف أهم كتاب تاريخي للمغرب منذ استقلاله عن الخلافة العباسية، قيام الدولة المرينية لا نعرف عن تاريخه شيئا ولا عن حياته ولا حتى عن أسرته، إلا القليل الذي لا يغني عن معرفته[36]، ولكن على الرغم من هذا سنحاول الإلمام بما يخص ويدور حول هذا الكتاب ومعرفة

أحواله وجزء من حياته وأسرته بما توفر لدينا من بعض الشذرات الموجودة في طيات كتب المعاصرين له.

مكانته العلمية:

إن الغموض الكبير الذي يدور حول شخصية مؤرخنا، يدعونا إلى أن نقر أنه من الصعب أن نذكر تاريخ لولادته أو شيئا عن نشأته أو شيئا عن أسرته، ولكن نستطيع أن نشير بعض أحواله التي تفهم من كلام الشيخ أحمد زروق جاء ذكره فيه عرضا، في حديثه عن ابن البناء السرقسطي، ولكنه ذكر فقال " وألف كابن أبي زرع صاحب التاريخ وغيره"[37].

هذا الكلام لزروق في ابن البناء السرقسطي، ويهمنا هنا تلك اللمحة التي وردت أثناءه عن ابن أبي زرع صاحب التاريخ،وهي أنه أيضا كان غير مشهور بالعلم مع أنه ذو مكانة فيه وعدّ من عجائب فاس إذا كان من عامتها وألّف الكتب...[38]

ويجدر الإشارة أنه ينبغي أن يعرف، أن المراد بالعامية التي ذكرها ابن زروق هو عدم الشهرة بالعلم والتصدر في مناصبه المعهودة كالتدريس والفتوة والقضاء، أو على الأقل عدم المشاركة في فنونه المختلفة، وهذا الأمر كان معهودا ومتداولا في ذلك العصر خاصة عند مؤلفي التراجم من الأندلسيين أو المغاربة.

وهذا هو معنى العامية، إذ أطلق عند العلماء ومنه يؤخذ أنهم يعنون بالعوام في هذا الصدد الذين لم يحصّلوا القواعد ولم يتقنوا الأصول، وان كانوا على جانب من العلم لا يستهان به[39].

ومن هنا نعلم سر عدم ذكر هؤلاء، في كتب التراجم والطبقات لأن أصحابها لا يعترفون بعالمية هؤلاء وأمثالهم، وهم حين لا تكون لهم شهرة بالعلم في زمنهم لا يجرؤون على اظهار آثارهم، فتضيع أخبارهم وربما ضاعت آثارهم كما وقع لصاحبنا ابن أبي زرع[40].

أهمية كتاب الأنيس و المنهجية المتبعة في تأليفه

أهمية الكتاب:

إن الدارس لتاريخ المغرب الإسلامي، في العصر الوسيط يدرك أهمية الإنتاج التاريخي المتعلق بهذه الفترة، التي شهدت تقلبات سياسية واجتماعية عديدة خلقت نوعا من الاختلاف والتباين بين مراحلها تلك، رغم أنها تلتقي في معظمها عند الاهتمام بالتأريخ الرسمي للدول وذكر الأسر الحاكمة ورجالات البلاط، والطبقة المتنفذة في الدولة.

فكان روض القرطاس، للتعريف بالدول الأولى التي حكمت المغرب وبتاريخ مدينة فاس من الكتب التي طبقت شهرتها الآفاق، إذ ترجم في ظرف مئة سنة إلى أربع لغات، الألمانية والبرتغالية، واللاتينية والفرنسية[41].

وما واجهنا في البداية، هو الخلاف الذي وقع حول نسبة الكتاب للمؤلف ابن أبي زرع إذ أن صاحب كتاب سلوة الأنفاس، محمد بن جعفر الكتاني[42]، حين تعرض لذكر كتاب الأنيس المطرب، قال " كما قال الشيخ الإمام الثقة الثبت، الماهر الحجة، عمدة أهل المغرب في التاريخ صالح بن عبد الحليم، في كتابه، الأنيس والقرطاس ..."[43]

أما في الجهة المقابلة نجد أن كل من ذكر القرطاس أو الأنيس، فانه ينسبه لابن أبي زرع ولم نرى من نسبه لصالح بن عبد الحليم غير المؤلف المذكور... فهذا ابن خلدون في العبر بن الخطيب في الإحاطة، والجزنائي في زهرة الآس، وابن الفرضي في الجذوة والمقري في نفح الطيب وغيرهم من المؤرخين، الأثبات والنسابين الحفاظ كلهم ينسبونه لابن أبي زرع.[44]

يقع القرطاس في خمسمائة وسبعة عشر صفحة، اسمه الكامل " الأنيس المطرب بروض القرطاس في إخبار ملوك المغرب ومدينة فاس " وهذا في مقدمة دار المنصور التي أقرته بعد استعراضها لمزاعم بعض المستشرقين، القائلة أن كلمة القرطاس مصححة عن الفرطاس وهو لقب زيري بن عطية المغراوي، غارس الزيتون الذي يمر في وسطه سور فاس بين باب فتوح وباب الجديد، وأن روض الفرطاس المحرف إلى القرطاس هو زيتون ابن عطية، وكان من متنزهات فاس الشهيرة في العصر الوسيط.[45]

ألف الكتاب حوالي سنة ست وعشرين وسبعمائة، كما يستنتج من كلام صاحبه خلال حديثه عن الخليفة المريني أبي سعيد " فهو الخليفة في وقتنا هذا، وهو سنة ست وعشرين وسبعمائة، أطال الله أيامه وخلّد ملكه ونصر أعلامه "[46] كما يفهم من تاريخ آخر خبر في آخر صفحة من صفحات الكتاب يقول فيه، وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة أمر أمير المسلمين أبو سعيد عثمان أيده الله تعالى ونصره ببناء القنطرة آخر سوق الدباغين.

ولسنا ندري على وجه التحقيق، في أي زمن اتصلت جماعات المستشرقين الأوروبيين بهذا الكتاب، وكل ما نعلم أن أول ترجمة له قام بها بتس دولكروا إلى الفرنسية، ختمها بتاريخ 28 نوفمبر 1693ميلادية، وثاني ترجمة كانت إلى الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر لمسيحي نمساوي فانز فان دوانباي في مدينة زوغرابي، وثالثها ترجمة إلى البرتغالية مع عدة تعاليق بقلم جوزي دو سانتو أنتونيو، طبعت في لشبونة سنة 1828م، وترجم كوند ما يختص بالأندلس إلى الاسبانية.[47]

وفي سنة ،1834 نشر السويدي ك-ج طونبرج قسما منه، وفي سنة (1843-1846) نشر ذلك العالم نصه كاملا مع ترجمة لاتينية وعدة تعاليق في أربعة أجزاء، وذكر في مقدمته[48] أنه اعتمد في إخراج طبعته وترجمتها على تسع نسخ مخطوطة لهذا الكتاب، وأنه عانى الأمرين في طبعها، إذ وجدت عدة فقرات لا تكاد تقرأ في تلك المخطوطات الحاوية لعدة أخطاء خصوصا ما تعلق بأسماء الأعلام والأشعار الواردة في نص الكتاب.

ومخطوطا الكتاب التي اعتمد عليها العالم السويدي، توجد في مكاتب أوربا فلمخطوط الأول منها في مكتبة اوبسالة (السويد)، نسخ بين 10 ذي القعدة وذي الحجة سنة (908هـ) ويقول ناسخها، أنه كتبها لأحمد بن الحسن الجزولي، ثم الأفراني في مدينة (تمبكتو) المخطوط الثاني في فيسبي(السويد) سمي الكتاب بالقرطاس في عجائب فاس،

المخطوط الثالث في مكتبة جامعة ليدن الهولندية فرغ من نسخه في (15شعبان 989هـ).

والمخطوط الرابع، في المكتبة الوطنية بباريس، فرغ من نسخه في يوم الخميس(7ربيع الثاني 971هـ)، موسى بن محمد بن موسى الجماري، للقائد زكريا بن أبي بكر و المخطوط الخامس، في مكتبة خاصة بباريس و المخطوط السادس اختصار للكتاب وكان الانتهاء من نسخه يوم السبت(3محرم757هـ)، بيد عيسى بن عبد الرحمن بن عبد المؤمن الحاجي، والمخطوط السابع في مكتبة جامعة أكسفورد مكتوب على ظهره:"**كتاب روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس تلخيص الأنيس المطرب في أخبار المغرب**"والمخطوط الثامن، في أكسفورد أيضا يسمى:"**كتاب الأنيس المطرب على روض القرطاس...الخ**"[49]

والمخطوط التاسع، في أكسفورد أيضا يصف مؤلف الكتاب بقوله:" يقول الفقيه الأصفى المؤرخ، المتقي الأريب أبو الحسن ابن عبد الله بن أبي زرع الفاسي الدار والقرار" وفي سنة(1860م) ترجمه إلى الفرنسية ترجمة جديدة أ.بومي، والذي كان نائبا عن خليفة قنصل فرنسا في الرباط وسلا، وكتب له مقدمة في عشر صفحات، أما في المغرب فقد طبع في المطبعة الحجرية الفاسية، أربع مرات، أولها في سنة 1303.[50]

محتويات الأنيس المطرب بروض القرطاس

يستطيع الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي، أن يستفيد أيما فائدة من المعلومات المتنوعة التي وردت في الأنيس المطرب، لأنها تلقي الضوء على مجموع الجوانب الحياتية للإنسان المغربي في عصوره الوسطى.

لذلك نجده في مؤلفه، يصف حقبة زمنية تجاوزت خمسة قرون ونصف، وذكر دولا عديدة مختلفة الاتجاهات، لكنه لم ينحاز لأي دولة منهم فبدأ بدولة الأدارسة ثم دولة المغراويين واليفرنيين، ودولة المرابطين ثم الموحدين ليصل في النهاية إلى ذكر دولة المرينيين.

الجانب الاقتصادي:

وقد حظي الجانب الاقتصادي في كتابه بالاهتمام الأكبر، فهو يسجل حالات الرخاء و الأزمات التي عاشها المجتمع المغربي بصفة خاصة، والعالم الإسلامي بصفة عامة حتى (726هـ-1325م)، ففي معرض حديثه عن دولة الأدارسة، يقدم شرحا وافيا عن الحياة الاقتصادية مما تنتجه فاس من أنواع الغلاة الزراعية، فيقول " وبمدينة فاس من أصناف الأزهار و الفواكه ما لا يوجد في غيرها من البلاد، إلا مفترقة في أقاليم شتى...و تختص عدوة القرويين بكثرة الأنهار والعيون العذبة والآبار القريبة الطيبة، وبها الرمان السفري الذي ليس في المغرب مثله حلاوة ولذة، والتين الشعري...والعنب والخوخ والجوز والسفرجل والأترج..."[51]

كما أنه لم يكتفي بذكر خيرات مدينة فاس، بل ذكر أيام الرخاء وأشار إلى حالات المجاعة والقحط في تلك الفترة، وقدمها تحت عنوان بارز هوا **لخبر عن الأحداث التي كانت بالمغرب وأيامهم الى انقضائها**[52]

يبدو أن الاهتمام بالجانب الاقتصادي، لم يكن مقتصرا على مؤرخنا ابن أبي زرع بل كان سمة من سمات الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، فهذا ابن عذارى أيضا يظهر نفس الاهتمام في كتابه البيان المغرب، وذلك بذكر الأحوال الاقتصادية وما تعلق بها من ارتفاع الأسعار وحدوث القحط والغلاء والمجاعات والأوبئة، وما يترتب عن ذلك من فتن في المغرب والأندلس، واهتم كذلك برصد الوجه الأخر للأحوال الاقتصادية وهي حالة الخصب والرخاء ورخص الأسعار، كما اهتم برصد السيول والحرائق وهبوب الرياح العاتية " وفي سنة(660هـ) كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب، والوباء والطاعون.[53]

أما ابن أبي زرع فقد أضاف إلى الأحوال الاقتصادية، ذكره للمنشآت الاقتصادية خاصة في عهد المرابطين والموحدين، مثل الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء والحوانيت وأحصى الترابيع[54] والاطرزة المعدة لصناعة الحياكة، والديار المعدة لعمل الصابون وديار الدباغ وديار الصباغ والأفران وغيرها، أما عن العصر المريني، فيقول في

حديثه عن السلطان يعقوب بن عبد الحق(656-685هـ/1258-1286م)، فرأى الناس فيها من الدعة والخير ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره، بيع الدقيق فيها بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب ربع درهم، والقمح ستة دراهم للصحفة، والفول وجميع القطاني ما لها سوم ولا يوجد من يشتريها، والعسل ثلاث أرطال بدرهم، والزيت أربعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم .والزيت درهم ونصف للربع...

كما أرخ لحالات القحط والغلاء التي مرت بها بلاده، فيقول عن سنة ثلاثة عشرين وسبعمائة " وفيها كان القحط واستسقى الناس وارتفعت الأسعار وبدأت المجاعة وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كان الغلاء العظيم والمجاعة الشديدة بالمغرب"[55]

الجانب الثقافي:

أولى ابن أبي زرع اهتماما بالجانب الثقافي، من خلال الحديث عن الحركة العلمية بداية من دولة الأدارسة، عندما ذكر أهم العلوم التي برع فيها هؤلاء ومنها علوم القرآن والفقه والحديث والنحو والشعر فيقول عن ادريس الثاني، "كان فصيحا بليغا أديبا عاملا بكتاب الله تعالى، قائما بحدوده"[56] وعن الدولة المرابطية، يقول فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن... وأخذ يعلمهم الكتابة والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك[57]

وقد يكون الحديث عن الجانب الثقافي، في مؤلفات العصر الوسيط طابعا ميز هذه الأخيرة فهذا يحي بن خلدون يورد في كتابه، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، قصائد كاملة ويسمي بحورها، من الطويل والكامل والوافر والبسيط ثم يذكر علماء تلمسان وأوليائها الصالحين والفقهاء، وتبحرهم في الفقه والأدب والخط وذلك في فصل أفرده لهم "الفصل الثاني في تعداد من أنجبته تلمسان واستقر بها من العلماء والصالحين[58]

أما على صعيد الدولة المرينية، فقد ذكر ابن أبي زرع مدى اهتمام السلطان يعقوب بن عبد الحق(ت685هـ-1286م)بالحركة العلمية، من خلال بنائه للمدارس والصرف عليها[59] كما أنه أفرد مساحات واسعة ومهمة لوافيات أعيان معظم الدول التي تناولها،

فشملت وافيات الأمراء والفقهاء والعلماء، فقدم لأخبار الوافيات في دولة الادارسة ودولة زناتة، ودولة المرابطين ودولة الموحدين وأيضا عن الدولة المرينية المعاصرة له حيث قدم لها ثلاثين حالة وفاة.

كما أنه لم يغفل أن يتناول النشاط العمراني، من بناء المدن والأسوار وحفر القنوات و أول هذا النشاط تمثل في بناء مدينة فاس، كما رصد الظواهر الطبيعية مثل الخسوف والكسوف والزلازل والأعاصير التي شكل ذكرها، حيزا في كتابه فقال"وفي سنة أربع وخمسين ومائتين كسف القمر كله في أوائل الليل حتى أصبح ولم ينجلي[60] وزاد على هذا بذكر حالات الأوبئة والأمراض في مختلف الدول التي تحدث عنها بداية من الأدارسة فقال "في سنة مائتين وخمسة وثمانين كان الوباء والمرض وموت كثير من الناس مالا يحصى، فكان يدفن في القبر الواحد أعداد من الناس..."[61]

منهجية ابن أبي زرع في كتابة الأنيس المطرب:

كان الاهتمام بالتواريخ المحلية في كل الأزمنة، تعبيرا أدبيا عن شعور الجماعة، ولقد عبرت المجتمعات التي تكوّن العالم الإسلامي كافة، عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم، ومع أن الكثير من التواريخ المحلية الإسلام نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية غير أن المفاخر الإقليمية كانت وراء مباحث العلماء[62]

أشار ابن أبي زرع في كتابه، إلى المنهج الذي اتبعه فيقول متحدثا عن الشخصيات التي تناولها في مؤلفه، "وأذكرهم أميرا بعد أمير وملكا بعد ملك، وخليفة بعد خليفة، وأمة بعد أمة على حسب تواليهم في أعاصرهم ومراتبهم في دولهم وأوطانهم كما وقع في الزمان".[63] وهو منهج تعاقبي يتناول أفعال الأمراء والملوك، ووقائعهم البطولية حسب تسلسلها التاريخي وعبر الدول التي حكمت المغرب، من نهاية القرن الأول إلى بداية القرن الثامن هجري والذي يمكن أن نسميه أيضا تاريخ الدولي والسلالات المالكة، وهي من الحقوق التي كان يخولها الملوك المسلمون لأنفسهم، بأن تدون أعمالهم ومآثرهم في التواريخ الرسمية

لأنهم كانوا يرتاحون لقراءة ما يمجدهم ويخلد ذكرهم، ولأن ذلك من شأنه أن يرفع منزلتهم لا في نظر شعوبهم فحسب ولكن في نظر الأمم الأجنبية أيضا[64]

أما ابن أبي زرع فقد اختار المنهج التعاقبي، فجاءت مادته متسلسلة، متدرجة من الماضي إلى الحاضر ونلمس ذلك، بشكل واضح في أنساب الأعلام فهي أيضا متسلسلة متعاقبة إلى آخر حلقة من السلسلة العائلية، ولعلّ التعاقب على مستوى الأنساب هو مرجع التعاقب على مستوى الأحداث التاريخية، لأن التاريخ العربي القديم كان تاريخ الأنساب لا تاريخ أحداث ووقائع وبذلك كانت هذه الأنساب ذاكرة المؤرخين العرب الوسيطين، التي استقو منها مادتهم ومنهجهم في التاريخ ومن الأمثلة على ذلك خبر نسب الدولة المرينية في الأنيس المطرب فقال عنهم "فخذ من زناتة وهم من ولدي مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجريح بن فاتن بن بدر بن عبد الله ...بن ضريس بن مادغيس الأبتر بن بر بن قيس بن عيلان بن مظر بن نزار بن معد بن عدنان.[65]

يرى محمد الظريف،[66]أنه بالإضافة إلى هذا المعلم، من معالم منهجية المؤلف تأتي الإقليمية في الدرجة الثانية، وتبدوا واضحة من خلال العنوان، فالكتاب إلى جانب كونه أخبارا لملوك المغرب هو تاريخ لمدينة فاس[67] ولعلّ، فكرة كتابة تاريخ المغرب الأقصى وحده في عصوره الإسلامية إنما شاهدت طريقها إلى الظهور، في عصر دولة بني مرين بعد انهيار الخلافة الإسلامية الموحدية، وتمزق الوحدة التي كانت تمثلها وظهورها في شكل أربع وحدات سياسية إقليمية خاصة، فهناك دولة بني الأحمر في غرناطة، ودولة بني حفص في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة بني مرين في فاس[68]

وزيادة على ذلك أظهر عناية بتراجم الأمراء والسلاطين، مركزا على الأوصاف الجسمية لهم كأن يقول في أوصاف إدريس الثاني(ت213هـ-828م)،"كان أبيض اللون مشربا بحمرة أكحل أجعد تام القد...فصيحا بليغا أديبا."[69] وبهذا يكون قد عاد بنا إلى طريقة المؤرخين الأوائل في الدولة الإسلامية، حينما كانوا يصفون الشخصيات المهمة وصفا جسمانيا.

كما رأيناه يجمع بين المنهج التعاقبي والمنهج الحولي، بحيث التزم بسرد أحداث عصره فرتب أخباره على السنوات إلى جانب ذلك، فان الكتاب لم يخلوا من بعض القصص والأساطير غير المعقولة التي لم تذكرها مصادر أخرى، مثلا كذكره لحادثة دفن عبد المؤمن الموحدي لأحد أشياخ الدولة، بحيث ترك الناقة تختار موضع الدفن.[70]

أسلوبه ولغته:

ألف ابن أبي زرع الأنيس المطرب في دولة بني مرين، تلك الدولة التي يعد عصرها من العصور الذهبية، لما ازدهر فيها من حركات علمية وأدبية وفنية أثمرت وأينعت ثمرتها[71] ولكنه لم يكن(على ما يظهر) بالعالم المتفوق في علوم اللسان، وإنما استطاع أن يجمع كتابا من عدة كتب فأفاد حيث، أغلب تلك المؤلفات أصبحت في حيز العدم وجاء أسلوب كتابه يتباين في كثير من فقراته، إذ تصادف الفقرة البليغة فترتاح لانسجامها، ولكن لا تسير قليلا حتى تجد الجمل التي تساهل قائلها في تركيبها فجاءت مضطربة المبنى قلقة التركيب، غير مرتكزة اللفظ، بعيدة عن الأسلوب الفصيح[72].

يقول سعيد حجي أن ابن أبي زرع، قد صرح في كتابه أن مصادره هي كتب التاريخ المعتمد على صحتها سوى ما رواه، عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب وقيده عن الرواة الثقاة و الأنجاب ويرى أيضا أنه من سوء الحظ، أن لا يعثر على كتاب آخر له يحيل القارئ عليه في بعض المناسبات يسميه **زهرة البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع الوجود**، والذي يظهر أنه كان عالميا، أو بالأصح يتناول شيئا من تاريخ الممالك الإسلامية الغير مغربية ولكن من يدري فلعل هذا الكتاب المهم ملقى، في زاوية من مكتبة خاصة بالمغرب حيث لا تعرف قيمته[73]

أما عبد الله كنون فله رأي آخر بحيث، يقول "نحن لا نذهب مذهب الذين وصفوا أسلوبه بالهلهلة وألفاظه بعدم الفصاحة، وإذا وقع شيء من ذلك في كتابه فانه يرجع إلى خلاف النصوص وتباين الذين نقل عنهم من المؤرخين في صياغة الكلام، ومما يدل على سلامة ذوقه الأدبي هذه الأسماء التي يتخيرها لكتبه فيوازن بين سجعاتها ويتخيل فيها

تخيلا شعريا جميلا كاسم الأنيس الطرب بروض القرطاس، واسم أزهار البستان في أخبار الزمان[74]

الى جانب أسلوبه في الكتابة، هناك مادته اللغوية التي لا تعتبر غزيرة ولكنها دقيقة وسهلة الفهم فهو يأخذ الكلمات في سهولة ودون تكلف، من غير تعمق وأحيانا يفضل الكلمة المستعملة في عصره ولو كانت غير فصيحة، لأنها في نظره أدق في التعبير عن المعنى وأفيد لمن لا يعرف غيرها من القراء، ولهذا فان لغة ابن أبي زرع تصلح مادة لدراسة اللغة التي كانت مستعملة في التعبير الكتابي والشفوي في مدينته، على عهد بني مرين فهي عند التأمل تبدوا بين بين، ليست راقية وليست منحطة ومع ذلك سهلة ومرنة[75]

كما لاحظنا وجود مادة لغوية جديدة يدخلها ابن أبي زرع في كتابه ،بحيث يستعمل كلمات خاصة بالمغرب، مثل كلمة المحلة فيقول "فتكون محلة الأندلس محلة واحدة"[76] ويقول في موضع آخر، "ولم يكن في عمل من بلادهم خراج ولا معونة ولا وظيفة من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر"[77] وهنا، استعمل كلمة المخزن التي كانت حديثة الظهور في المغرب الأقصى، ونجده أيضا يستعمل كلمة الكراع التي تعني الخيل والسلاح.

وبهذا نكون قد وصلنا في نهاية هذا المبحث إلى حقيقة مهمة، تتعلق بمؤرخنا وهي أنه مثل استمرارية طبيعية للكتابة التاريخية في الدولة الإسلامية، حيث انتقل من المنهج الحولي إلى المنهج التعاقبي أو تاريخ الدول والسلالات، وهذا طبعا تماشيا مع روح عصره ليترك للأجيال من بعده ذخيرة علمية لا يستهان بها، كما أنه لم يفوت على نفسه الفرصة باستغلال المنهج الحولي عندما تعرض لسرد الأحداث التي تعاقبت في الدول التي تحدث عنها.

مصادر ابن أبي زرع:

حدد ابن أبي زرع في كتابه، المصادر التي استقى منها معلوماته وبذلك يكون قد قام بعمل مشابه لمناهج البحث الحديثة، وأول شيء استوقفنا في دراستنا لهذه المصادر هو تكرار جملة قال مؤلف الكتاب، وقال المؤلف رحمه الله، وقال المؤلف عفا الله عنه، وقال

المؤلف لهذا التاريخ...الخ، وبعد الإمعان في التفكير في هذه المسألة لا يمكن لأي مؤلف أن يتحدث عن نفسه بصيغة الغائب، لذلك فان هذه الجمل قد تكون لناسخي الكتاب.

لاحظنا على ابن أبي زرع أنه، انتقائي في اختيار مصادره فأخذ في موضوع إثبات النسب من المؤرخين النسابة، ومثال ذلك أنه استعان بالهمذاني في كتابه الإكليل حيث قال "ذكر محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني، صاحب كتاب الإكليل في الدولة الحميرية أن لمتونة فخذ من صنهاجة، وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير"[78] واستعان أيضا في الأنساب لأبوا عبيدة وابن الكلبي والزبير بن بكار وغيرهم.

أما في حديثه عن الدول التي سبقته، أخذ عن المؤرخين الذين عاصروا تلك الدول فيقول مثلا "رأى بعض المؤرخين لأيامهم"،كما استعان بكتاب المقباسي لعبد الملك الوراق الذي يؤرخ لأخبار المغرب والأندلس وفاس[79]

كما أنه استعان بالجغرافيين أمثال البكري، وأبوا محمد الهمذاني كما كان في كتابه نصيب أيضا للشعر والشعراء من أمثال شاعر المرنيين، أبوا فارس الملزوزي[80] حيث نقل جزءا من أرجوزته في الأنيس المطرب.

وفي الأخير هناك بعض المؤرخين نقل عنهم ابن ألي زرع، لكن مؤلفاتهم أصبحت في حكم المفقود ولم نجد في تراجم العلماء أثرا لهم، مثل أبو علي المليانى وبن غالب وأبوا عبيدة البرنسي.

الخاتمة:

من خلال فصلي الدراسة، اللذين شملا مختلف جوانب الموضوع الرئيسية والثانوية توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات كانت بمثابة الإجابة، على إشكالية البحث ومختلف التساؤلات التي تتمحور حول ابن أبي زرع، ومنهجيته في الكتابة التاريخية فقد ارتأينا تقديمها كالتالي:

كانت شخصية ابن أبي زرع شخصية مثيرة للجدل، وهذا ما صعب الوصول إلى تاريخ ولادته أو إلى شيء عن نشأته وأسرته.

أيضا نسبة الكتاب له كانت محط اختلاف بين المؤرخين، لكن وجدنا أنه أجمع عدد لا بأس به من أهل العلم المعاصرين شرقيين ومستشرقين، على أن نسبة كتاب الأنيس تعود إلى ابن أبي زرع.

إن القيمة التاريخية لكتاب ابن ابي زرع، قد تجلت في سده لثغرة كبيرة في تاريخ المغرب الأقصى خاصة.

أما الأسلوب الإنشائي فقد طغى في كتابه، وطريقة تناوله للمواضيع كما سادت اللغة العربية الفصحى كتابه، ماعدا بعض الكلمات العامية المغربية.

إن الحقيقة المهمة التي تتعلق بمؤرخنا، هي أنه مثّل استمرارية طبيعية للكتابة التاريخية في تاريخ الدولة الإسلامية، بحيث انتقل من المنهج الحولي إلى المنهج التعاقبي أو تاريخ الدول والسلالات وهذا طبعا تماشيا مع عصره، كما أنه لم يفوت استغلاله للمنهج الحولي عندما تعرض لسرد الأحداث التي تعلقت بالدول التي تعرض لها.

قائمة المصادر والمراجع

-ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتالريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م

ابن خلدون، كتاب العبر ،ج7، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/20م

- ابن الأحمر اسماعيل، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1972هـ

- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق و مراجعة. ج س كولان، ليفي بروفنسال، ج1،ط3، الدار العربية للكتاب ودار الثقافة، بيروت، 1983م

- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. احسان عباس،ط1، مكتبة لبنان، بيروت، دس.

-أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح.عبد الحفيظ عبد الله الهرمه، ج1، وج2، كلية لدعوة الاسلامية، طرابلس، دس.

ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عدنان، مج1،ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، دس

– علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح. عبد الوهاب بن منصور، ط2.المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ-1991م.

–مجهول، الستبصار ،تع. سعد زغلول ، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، دس.

–يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة سيبير فونتانا الشرقية الجزائر،1903.

المراجع

–ابراهيم حركات، معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب في عهد بني مرين، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية، ع2، الرباط، 1977هـ.

–عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، باعتناء. احسان عباس، ج1،ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م.

–عبد الواحد دنون طه: المصادر في تاريخ المغرب والأندلس،ط1،بيروت،دس.

– عبد الواحد دنون طه: دراسات في تاريخ وحضارات المغرب الاسلامي،ط1،دار المدار الاسلامي، بنغازي، ليبيا، 2004.

–عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مركز التراث الثقافي والمغربي، الدار البيضاء،1430هـ-2010م

– عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1418هـ-1997م.

–فرانز روتنثال: علم التأريخ عند المسلمية، تر. صالح أحمد العلي،ط2، مؤسسة الرسالة،بيروت،1403هـ-1983م.

–عبد الوهاب بن منصور، تصدير كتاب نظم السلوك للملزوزي، المطبعة الملكية،الرباط،1382هـ-1963م.

–محمد المنوني، ورقات عن حضارات المرينيين، ط3، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1420هـ-200م.

– ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب. عبد القادر الخلادي، دار الغرب، الرباط، 1397هـ-1977م.

–مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، 1986م.

–عبد القادر زمامة: مجلة المناهل، المقال بعنوان:(في تحليل مصادر تاريخنا ابن أبي زرع)،وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، السنة السابعة، العدد الثامن عشر،1400هـ-1980م.

–عبد القادر الادريسي:مجلة دعوة الحق،عنوان المقال(البدايات الاولى لاحياء التراث المغربي، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، السنة 23،العدد1982،4م

[1]– ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص09.

[2]– محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب،ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص633–634، نقلا عن وفايات الونشريس لأحمد بن يحيى الونشريسي.

[3]– علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح. عبد الوهاب بن منصور، ط2.المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ–1991م، ص60.

[4]– إسماعيل ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1972هـ، ص61.

[5]– عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مركز التراث الثقافي والمغربي، الدار البيضاء،1430هـ–2010م، ص470.

[6]– عبد الله كنون ،المرجع السابق، ص474.

[7]– عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1418هـ–1997م، ص127.

[8]– ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص07.

[9]– عبد الله كنون، المرجع السابق،ص475.

[10]– سموا بالمرينيين نسبة إلى جدهم مرين، أنظر إبراهيم حركات، معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب في عهد بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع2، الرباط، 1977هـ، ص123.

[11]– عبد الواحد دنون طه: المصادر في تاريخ المغرب والأندلس،ط1،بيروت،2011م، ص147.

[12]– عبد الواحد دنون طه: دراسات في تاريخ وحضارات المغرب الإسلامي،ط1،دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، 2004،ص295.

[13]– دولة الموحدين قامت على أنقاض الدولة المرابطية (454/543هـ–1062/148م) ويعتبر المهدي بن تومرت(ت 524هـ/1130م) الزعيم الروحي والمؤسس لهذه الدولة، وقام بالأمر من بعده خليفته عبد المؤمن بن علي(ت558هـ/1163م)، وذلك في سنة(524هـ/1130م)، حيث قضى على دولة المرابطين بفتح عاصمتهم مراكش سنة(543هـ/1148م)، ينظر،ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص176.

[14]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، 1986، ص422.

[15]–ولد يغمراسن سنة (603هـ/1206م)ولي وبويع يوم توفي أخوه أبو عزه (633هـ/1236م)، وكان معروفا عند قومه بدهائه السياسي وشجاعته وحزمه وحصافة رأيه، ومكارم أخلاقه وأثاره لذوي الفضل والعلم، حيث قال عنه ابن خلدون" كان يغمراسن بني زيان بن ثابت بن محمد من أشد بني عبد الوادي بأسا وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالا وأعرفهم بمصالح قبيلة وأقواهم كاهنا، اشتهر بحصافة الرأي وسداد التدبير وقوة العزيمة معظما عند الخاصة والعامة، يرجعون إليه في كل الأمور عندما تداهمهم النوازل والنوائب والعوادي"، ينظر،ابن خلدون، كتاب العبر ،ج7، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م،ص162.

[16]- نفسه،ص176.

[17]- ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق،ص305.

[18]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص178.

[19]- طريف: مدينة تقع في أول المجازي المسمى بحر الزقاق ويتصل غربيها ببحر الظلمات، ويشقها نهر صغير ومن طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميل، وسمي طريف بهذا الاسم نسبة إلى القائد طريف مولى موسى بن نصير(ت97هـ/716م) الذي نزلها أول الفتح، ينظر، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. احسان عباس،ط1، مكتبة لبنان، بيروت،دس،ص392.

[20]- محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس بالعصر المريني

[21]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص315.

[22]- نفسه، ص315.

[23]- محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص318.

[24]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص80.

[25]- مصباح بن عبد الله الياصلوتي كان فقيها صالحا حافظا نوازليا، أول من درس بمدرسة أبي حسن المريني توفي(750هـ/1349م) وله فتاوى عديدة ، ينظر، أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح.عبد الحفيظ عبد الله الهرمه، ج1، وج2، كلية لدعوة الإسلامية، طرابلس، دس،ص306.

[26]- أبو عبد الله الرندي الفاسي،(ت 746هـ/1345م) الفقيه لحافظ، القائم على المذهب، إمام في العربية مقدم في النظر، انتفع به خلق كثير توجه مع السلطان أبي الحسن المريني لافريقية فمات بها، ينظر، أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق، ج2، ص56.

[27]-نقلا عن عبد الله كنون، المرجع السابق، ص482.

[28]- عبد الله كنون، المرجع السابق، ص482.

[29]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عدنان، مج1،ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، دس، ص483.

[30]- عبد الله كنون، المرجع السابق، ص484.

[31]- المرجع نفسه، ص484.

[32]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص20.

[33]- نفسه، ص22-23.

[34]- عبد الله كنون، المرجع السابق،ص485.

[35]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 84.

[36]- عبد الله كنون، المرجع السابق، ص468.

[37]- نفسه، ص480.

[38]- نفسه، 480.

[39]- نفسه، ص481.

[40]- نفسه، ص481.

[41]- ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب. عبد القادر الخلادي، دار الغرب، الرباط، 1397هـ-1977م، ص18.

[42]- محمد بن جعفر الكتاني، ولد بفاس سنة1274هـ/1857م، أخذ عن مجموعة من الشيوخ و القضاة منهم القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن العلوي وأبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن سودة وغيرهم، رحل إلى الحجاز عام 1321هـ ورجع الى فاس سنة 1325هـ ثم عاد للهجرة مع أهله هذه المرة عام 1327هـ، وعاد إلى المغرب سنة 1345هـ، إلى أن توفي بفاس في 16 رمضان 1345هـ، ينظر: عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، باعتناء. إحسان عباس، ج1،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م، ص ص515-517.

[43]- محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح. محمد حمزة بن علي الكتاني الطبعة الحجرية، فاس، دس، ص1.

[44]- عبد الله كنون، المرجع السابق، ص473.

[45]- ابن أبي زرع، المصدر نفسه، مقدمة دار المنصور،ص2، وأيضا، علي الجزنائي، المصدر السابق،ص43.

[46]- نفسه، ص395.

[47] - سعيد حجي، مجلة دعوة الحق، عنوان المقال:(البدايات الأولى لاحياء التراث العربي)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، السنة 23، العدد04، 1402هـ/1982م،ص111.

[48] - سعيد حجي ، المرجع نفسه، جاء فيها على لسان سعيد حجي، أن السيد غابريال الأستاذ بمدرسة غورو، بالرباط قد أطلعه على محتويات تلك المقدمة.

[49]- سعيد حجي، المرجع السابق،ص113.

2- نفسه، ص113.

[51]- صاحب الاستبصار يقول في نفس الشأن،" ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء، كثيرة البساتين والمزروعات والفواكه وجميع الثمار" ينظر: مجهول، الاستبصار ،تع. سعد زغلول ، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، دس، ص180.

[52]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص97.

[53]- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق و مراجعة. ج س كولان، ليفي بروفنسال، ج1،ط3، الدار العربية للكتاب ودار الثقافة، بيروت، 1983م،ص116، وعن الخصب والرخاء ،ينظر، ج1.ص157.

[54]– جمع تربيعة، وهي سوق صغيرة وربعة الشكل يعمل بها بعض الصناع مثل الخياطين ونحوهم ولا تزال هذه الترابيع موجودة في فاس ومسماة بهذا الاسم، ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص48.

[55]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص413.

[56]– ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص25،هذه الفقرة في وصف ادريس الثاني، نجدها في كتاب الدرر السنية وهي مأخوذة من الأنيس المطرب، ينظر: علي السنوسي الخطابي، الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية، مطبعة الشباب،مصر،1349هـ،ص58.

[57]– ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص125.

[58]– يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة سيبير فونتانا الشرقية الجزائر،1903،ص ص23-27.

[59]– ابن ابي زرع، المصدر السابق،ص298.

[60]– ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص96.

[61]– ابن أبي زرع،نفسه،ص96.

[62]– فرانز روتنثال: علم التأريخ عند المسلمين، تر. صالح أحمد العلي،ط2، مؤسسة الرسالة،بيروت،1403هـ-1983م،ص206.

[63]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص13.

[64]– ليفي ب روفنسال، المرجع السابق،ص48.

[65]– الانيس المطرب، المصدر السابق، ص ص278-279،وأيضا محمد الظريف: مجلة تاريخ المغرب، عنوان المقال:(طريقة التأليف عند المؤرخين المغاربة في العصر الوسيط)،نموذج: الأنيس المطرب، لعلي بن أبي زرع الفاسي، الدار البيضاء، العدد الثالث،ص86.

[66]– الدكتور محمد الظريف، حاصل على دكتوراه في الأدب العربي من جامعة محمد الخامس بالرباط،له عدة مؤلفات في مجال الدراسات الأدبية والتاريخية والدينية ،إلى جانب عدد مهم من المقالات كما حقق عددا من الكتب، ينظر، الرحلة المعينية، لماء العينين بن العتيق، تقديم وتحقيق محمد الظريف.ط1،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،2004.

[67]– محمد الظريف ،المرجع السابق،ص85.

[68]– عبد القادر زمامة: مجلة المناهل، المقال بعنوان:(في تحليل مصادر تاريخنا ابن أبي زرع)،وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، السنة السابعة، العدد الثامن عشر،1400هـ-1980م،ص289.

[69]– الأنيس المطرب ،المصدر السابق،ص25.

[70]– نفسه،ص110.

[71]– عن الحياة العلمية في الدولة المرينية، ينظر: محمد المنوني، ورقات عن حضارات المرينيين، ط3، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1420هـ-200م.

[72]- عبد القادر الادريسي:مجلة دعوة الحق،عنوان المقال(البدايات الأولى لإحياء التراث المغربي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، السنة 23،العدد1982،4،ص108.

[73]- سعيد حجي، المرجع السابق،ص110.

[74]- عبد الله كنون، المرجع السابق،ص484.

[75]- عبد القادر زمامة، المرجع السابق،ص292.

[76]- ابن أبي زرع المصدر السابق،ص146.

[77]- نفسه،ص167.

[78]- ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص119.

[79]- هو أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق، مؤرخ مغربي من ألام مدينة فاس، كان حيا سنة 555هـ-1160مكما يتضح ذلك من نص نقله كل من الجزنائ وابن أبي زرع، نقل عنه أيضا صاحب مفاخر البربر وسماه المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس، ينظر، أنور محمد الزناتي دراسات تحليلية في مصادر التراث العربي، زهران للنشر،القاهرة،دس،ص141.

[80]- أبو فارس عبد العزيز بن عبد الرحمان الملزوزي المكناسي، ولد في مكناس شاعر ومؤرخ مغربي يعتبر من أعظم شعراء العصر المريني وكان شاعر أبو يحي بن عبد الحق، فكان الملزوزي يخلط العربي والزناتية فهو من قبيلة ملزوزة الأمازيغية في اقليم طرابلس وقد مات في السجن سنة 697هـ-1298م،ينظر،عبد الوهاب بن منصور، تصدير كتاب نظم السلوك للملزوزي،المطبعة الملكية،الرباط،1382هـ-1963م،ص12.